بين الحداثة والاصالة نصر حامد أبو زيد انموذجا

/ الورقة البحثية المقدمة من قبل الاستاذ المساعد دكتور رقية شاكر منصور

(الى الندوة العلمية الموسومة (الحداثة والنص القرآني

أولاً :ـ سيرته الذاتية والعلمية

ولد نصر أبو زيد في أحدى قرى طنطا سنة 1943م ، ونشأ في أسرة ريفية بسيطة ، في البداية لم يحصل على شهادة الثانوية العامة التوجيهية ليستطيع استكمال دراسته الجامعية ؛ لأن أسرته لم تكن تستطيع أن تنفق عليه في الجامعة لهذا اكتفى في البداية بالحصول على دبلوم المدرسة الثانوية الصناعية قسم اللاسلكي عام **1960 .**

حصل نصر على الليسانس من قسم اللغة العربية ، وآدابها بكلية الآداب جامعة القاهرة 1972 بتقدير امتياز، وأيضاً من نفس القسم والكلية في الدراسات الإسلامية حصل على الماجستير عام 1976م ، وبتقدير امتياز، ثم الدكتوراه في نفس القسم والكلية في الدراسات الإسلامية 1979م ، وبتقدير مرتبة الشرف الأولى .

عمل نصر حامد في عدد من الوظائف منها :

1. معيد بقسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب، جامعة القاهرة عام 1972م

2. 1976 مدرس مساعد بنفس القسم و الكلية عام

3. مدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة عام 1982م

4. أستاذ مساعد بنفس الكلية والجامعة عام 1987م

بعد ذلك عندما أراد الترقية قدم أبحاثه للحصول على لقب أستاذ تكونت لجنة من أساتذة جامعة القاهرة بينهم د. عبد الصبور شاهين الذي اتهم في تقرير د. نصر بالكفر والإلحاد ، حدثت القضية التي وصل أمرها إلى الإعلام والرأي العام ، وانتهت بترك نصر مصر إلى المنفى منذ عام 1995 بعد حصوله على لقب أستاذ بأسابيع.

فقد ذاع صيته عام 1995م ، حينما كان هدفاً للانتقادات الشرسة ، وصلت لدرجة التهديد بالقتل ، كما اتهم بالإلحاد تارة ، وبالردة تارة أخرى ، وأيضاً فرض عليه القضاء المصري قسراً الطلاق من زوجته ، ومنذ ذلك الحين يعيش نصر حامد أبو زيد في هولندا مع زوجته ، يعمل كأستاذ للفكر الإسلامي المعاصر

أهم إعماله ومؤلفاته

الاتجاه العقلي في التفسير (دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة) رسالة في الماجستير . في مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، طبعة القاهرة , 1990م

. نقد الخطاب الديني ، دار الثقافة الجديدة ،القاهرة ، 1992م

الإمام الشافعي وتأسيس الأيدلوجية الوسطية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1966م .

. النص السلطة ، الحقيقة ، مجلة ابداع ، عدد4 ، 1991م

ثانياً : - أهم آرائه

نجد الآن بعض المناهج المعاصرة التي افتتنت بكل ما هو غربي ، وركزت على القول أن النص القرآني هو نص إلهي ، ولكن في علاقة البشر مع هذا النص تصبح القراءة نسبية ، وليست قراءة كلية ، أي قراءة مطلقة ، ونحن البشر لسنا مهيئين لاستيعاب الحقيقة الكاملة المطلقة وانزلق البعض في هذا الخطأ الأحمق ، فمن هؤلاء على سبيل المثال :

الدكتور نصر حامد أبو زيد ، وذلك عندما مضى بعيداً – بعد مقدمات طويلة لمحاولة إخفاء حقيقة فكره – لإخضاع النص القرآني لهذه القراءات التاريخية المزعومة ، ومن الملاحظ على هذا المؤلف انه يختار عنواناً لكتابه يوحي بأنه متعاطف مع الفكر الإسلامي ، حريص على قضاياه ، لكنه يملأ كتابه بالأفكار العدوانية الهدامة التي تهدف إلى تقديم دراسات في بعض تخريب عقول الناس وضياعها( ). فالهدف كما يقول :((أن يعاد فهم النصوص وتأويلها بنفي المفاهيم التاريخية والاجتماعية الأصيلة ، وإحلال المفاهيم المعاصرة الأكثر إنسانية وتقدماً ! مع ثبات مضمون النص !، وإن الألفاظ القديمة لا تزال حية مستعملة لكنها اكتسبت دلالات مجازية))

فعندما يتناول على سبيل المثال- آية الإرث التي تحدد نصيب الذكر , ونصيب الأنثى انطلاقاً من قوله تعالى:

النساء: ١١

فيقول : أن هذا نص تأريخي بمعنى انه يتوجه للمجتمع الزراعي مثلاً , وعليه فأن المتغيرات البنيوية التي تشهدها المجتمعات الإنسانية تفرض قراءة هذا النص على انه نص تاريخي , وليس نصا مطلقاً فالمجتمع الزراعي , أو الإقطاعي كان يتولى فيه الرجل مسؤولية الإنتاج والعمل , وأما الآن في هذا العصر كما في أوربا , او في عصر قادم فالمرأة تتولى عملية الإنتاج جنباً إلى جنب مع الرجل . فما المبرر لأن يكون نصيب الرجل من الإرث ضعف نصيب المرأة من الإرث ؟! فيجب تأويل النص- الآية - تأويلا من خارج طبيعة النص , فنؤولها تأويلاً تاريخياً بالقول بأن هذه الآية خاطبت تاريخاً معيناً من مسار التطور الاجتماعي للبشر ,.

ويقول : ابو زيد عن القرآن الكريم : ((إنه نص بشري منتج ثقافي .. لا قداسة له , وأنه بينه وبين الشعر الجاهلي – خاصة شعر الصعاليك – تشابهاً كبيراً .. إلى غير ذلك))

ومن أفكاره أيضاً التي يطرحها في ثنايا كتبه نذكر على سبيل المثال ما جاء في كتابه المسمى بـ (نقد الخطاب الديني) فنجده يتهجم على الغيب , ويجعله مرادفاً للخرافة والأسطورة , ويرى أن العقل العربي المسلم غارق في هذا , ولا يتوقع له أن ينجو من الغرق ,( ) فهو دائماً يتهجم على النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة التي تتناول أمورا عقدية : كالكرسي والعرش والميزان والصراط والملائكة والجن والشياطين والسحر والحسد وغيرها من الثوابت فقد اعتبرها ألفاظا مرتبطة بواقع ثقافي معين , ويجب ان نفهمها على ضوء واقعها الثقافي , واعتبر ان وجودها الذهني السابق لا يعني وجودها العيني , وقد اصبحت ذات دلالات تاريخية , منطلقاً في كل أحكامه السابقة من أن النصوص الدينية نصوص لغوية , وينتهي إلى ضرورة إخضاع النصوص الدينية الى المناهج اللغوية

ومن افكاره انه يرى ان العلمانية هي التأويل الحقيقي للدين والفهم العلمي لموضوعاته ويقول: ((ليست العلمانية ما يروج له المبطلون من أنها فصل الدين عن المجتمع , ثم يضيف : أن الخطاب الديني يخلط عن عمد , وبوعي ماكر خبيث بين فصل الدولة عن الكنيسة بمعنى فصل السلطة السياسية عن الدين , وبين فصل الدين عن المجتمع والحياة))( ).

ثالثا :- الرد على المزاعم وتفنيدها .

هذا هو ملخص تلك النظرة في النقد التاريخي للقرآن الكريم بوضوح , نحن هنا نتناول الرد على هذا الاتجاه الفكري في نقاط يسيرة – إن جاز أن نسميه فكراً ، هل هو يريد بناء المجتمع الحديث ، أو التجديد المزعوم في الإسلام ، أم ماذا يريد ؟

أولا :- يجب أن يعي أصحاب العقول و المفكرون من أمثال هؤلاء إن الدين الإسلامي ، جاء لينشء مجتمعاً إسلامياً كما أراده الخالق سبحانه وتعالى – والإسلام هو الذي يغير المجتمع ويصبغه بالصبغة الإسلامية ،لا العكس ، أو أن الإسلام جاء ليضع أسساً للأسرة والمجتمع الإسلامي في كل جوانبه ، وليس الموضوع موضوعاً اقتصادياً صرفاً ، ولكن يتعلق بالتصور الإسلامي في هذا الجانب – تكوين الأسرة – وفي غيره من الجوانب كما أراد الله سبحانه وتعالى لما فيه تحقيق السعادة للبشرية. انه وأمثاله أرادوا من خلال الحداثة استبدال إرادة الخالق بإرادة فلاسفتهم و يريدون بذلك ان يطفئوا نورالله بأفواههم ، وان يجحدوا وجوده وقدرته سبحانه ، محاولين العبث بشريعتنا وسنة نبينا لذا تعرَّضوا للحدود الخمسة ، ولتعدد الزوجات وعارضوا القرآن وانتقدوا آياته , وانه كلام مفترى من لدن سيد المرسلين

ثانياً : - بنظرة عقلية بسيطة , نجد هذا التفسير التاريخي يخرج هذا النص ، وغيره من مؤداه بحجة أنه عالج مشكلة تاريخية في زمن محدود ، وذلك يعني تفريغ الدين من محتواه ومعناه حسب اختلاف العصور ، وحسب اختلاف المجتمعات ، وأن العقل البشري يقوم بتغيير مدلول النص القرآني كما يشاء كلٌ حسب الاحتياجات والأوضاع الاجتماعية ، ولا علاقة للغة بفهم النص , أي انه لا دين من عند الله تعالى ، والعقل البشري يكفي ليصوغ للبشر تشريعاتهم ؛ لان كل النصوص القرآنية ابتعدت بالطبع عن زمانها ومكانها ومجتمعاتها ، بمعنى لا حاجة لها ، . وهذه حقيقة ما يقود اليه هذا الفكر الحديث

فإذا مشينا مع هذا الفكر في موضوع الإرث على سبيل المثال فمن الممكن أن يختلف التأويل القرآني في نفس العصر والزمان , فمثلاً آية الميراث تكون في مجتمع زراعي في بلد إسلامي تفسر حسب المدلول اللغوي للذكر مثل حظ الأنثيين،أما في مجتمع صناعي في أي بلد إسلامي أو أوربا ، فإنها تختلف وتصبح المرأة مساوية للرجل في الإرث – حسب التفسير التاريخي بل إن افترضنا مستقبلاً – وجود مجتمع تمارس فيه النساء العمل ، يعتمد على المرأة أكثر ، فربما تعدل القسمة ؛ وتصبح المرأة مثل الذكرين ، وكيف بالله علينا إذا كان هناك اختلاط بين مجتمع إسلامي زراعي وآخر صناعي ، فأي المدلولات التاريخية سوف تطبق ؟ أم إن لهذه الحالة

مدلولات جديدة..؟! مؤكد أننا – حسب التفسير التاريخي للقرآن الكريم – سننتقل إلى حقوق المرأة المترتبة على الطلاق , وأنها قد لا تستحقها أصلاً , فهي مساوية هنا للرجل في الجانب الاجتماعي ، بل قد تنتقل هذه الحقوق ، وتصبح من حق الرجل مع تغيير الأوضاع الاجتماعية ، وسنضطر الى توقيف العمل بهذه النصوص أيضا، ويمتد الأمر للزواج وحقوق المرأة والمهر ، وغير ذلك فنوقفها ونغيرها حسب العصر ومتطلباته

وهكذا سلسلة لا تتوقف من خلال هذا النقد التاريخي

ثالثاً :- إن أبا زيد يريد من هذا كله التحرر من سلطة النصوص لانها سلطة تعوق مسيرة الإنسان في العالم ، وان يقوم بهذا الآن وفوراً قبل أن يجرفه الطوفان ؛ لأنها تشكل في الواقع و الثقافة خلال فترة تزيد على عشرين عاماً.
إذن يتبين في وضوح ان مصطلح (منتج ثقافي) يوازي مفهوم (منتج بشري) وتلك جرأة شديدة وغير محسوبة العواقب ، وأن يقلل من خطورة هذا الاتهام للقرآن الكريم بالبشرية المحاولة التبريرية التي قال بها ، وهي أنه تشكل من خلال أكثر من عشرين عاماً – يقصد بذلك سنوات النزول – والباحث لكي يبدي تبريراً خاطئاً حول الدفاع عن المصطلح الخاطئ الذي سحبه على القرآن الكريم يوقع نفسه في خطأ اشد تجريحاً للقرآن الكريم ، بإنكار سابقة وجوده في اللوح المحفوظ ، وهي الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم ، أو بالأحرى يؤكدها منزّل القرآن سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا: □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ القدر: ٤
رابعاً : - إذن هكذا يفسر أبو زيد مصطلح العلمانية فيرى أنه اصبح ملوثاً موصوماً بأنه مرادف الإلحاد ، فهو يحاول إن يزيف مفهومه بين الشباب والشابات العمود الفقري في بناء المجتمع ، زاعماً بان (العلمانية) هي التأويل الحقيقي للدين ، والفهم العلمي له ، وهل بعد ذلك مغالطة قبيحة تتجاوز كل الثوابت والقيم الثقافية ؟ فكما نعلم أن العلمانية ليست من العلم بكسر العين ، بل هي نسبة إلى (العالم) بفتح اللام و ولكن الجهل المركب يؤدي بأصحابه إلى مزالق الفضيحة والهوى.

ولا ندري إن كان ذلك عن جهل بمفهوم العلمانية ، أو هو يضاعف من خطورة هذا الاتجاه بتزييف المفاهيم إن أبا زيد وأمثاله يعلمون أن الدين عقيدة راسخة في نفوس الشباب والشابات وعقولهم ، وأن أحداً لا يقبل المساس به إلا إذا فرغ من كل قيمة ثقافية او أخلاقية , فإذا بهم يلجأون إلى الكذب والتزوير اعتماداً على بعض الغموض الذي يلف الكلمة في ثقافة المعاصرين ، وما كانت العلمانية إلا مرادف الدهرية في فكر القدماء، فهي تنسب كل انجاز مخلوق إلى فعل العالمانية ثم اختصر (**secularism**) الزمن أو العالم ، ومن ثم كانت الترجمة الأولى للكلمة المقطعان الأولان في مقطع واحد فصارت علمانية ، وقد يحاول بعض المزيفين أو المخدوعين

أن ينطقوا الكلمة بكسر العين (عِلمانية) كما فعل ابو زيد , وهو إيغال في الجهل بأصل المصطلح ، أو هروب مما يعنيه لدى واضعيه ، أو محاولة لخداع الشباب والشابات بزعم أن المراد هنا هو النسبة إلى العِلم لا إلى العالم

هكذا هم أصحاب العلمانية والعولمة فان دينهم وديدنهم هو الطعن في شريعة الإسلام ، و القرآن والنبوة ، والسنة المطهرة ، زاعمين بأن الإسلام لا يصلح لهذا الزمان ، وهو يصلح طقوساً وشعائر روحية فحسب السخرية من المعتقدات الغيبية في الإسلام ، والهزؤ بها.